والذين يجادلون فى عملية الذَّبْح الشرعية ، ويُزهقون أرواح الحيوان بالخنق مثلاً غفلوا عن الحكمة من الذبح : الذبح إراقة للدم ، وفى الدم مواد ضارة بالإنسان يجب أن يتخلص منها بتصفية دم ذبيحته ؛ لأن بها كمية من الدم الفاسد الذى لم يمرّ على الكلية لتنقيه.

فالمسلم حريص على أن يحمل منهج رسول الله ﷺ ، وحريص على أن يسود هذا المنهج حركة الحياة ، لكن لن يدَعَه الشيطان يُحقِّق هذه الأمنية ، كما لم يدع رسوله ﷺ من قبل ، فكيْده وإلقاؤه لم ينته بموت الرسول ، وإنما هو بَاقٍ ، وإلى أنْ تقومَ الساعة .

لذلك يقول تعالى فى الآية بعدها :

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) ﴾

قوله : ﴿فِي مِرْيَةٍ (٥٥)﴾ [الحج] يعنى : فى شك من هذا ، لذلك قلنا : إن أتباع رسول الله ﷺ مُكلَّفون من الله بأنْ يكونوا امتداداً لرسالته : ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..(١٤٣)﴾ [البقرة] شهداء أنكم بلَّغتم كما كان الرسول شهيداً عليكم ، فكلٌّ منَّا كأنه مبعوث من الله ، وكما شهد رسول الله عليه أنه أبلغه ، كذلك هو يشهد أنه بلَّغ من بعد رسول الله ؛ لذلك جاءت هذه الآية للأمرين ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما حمَّلنا هذه الرسالة قال : ما دُمْتم امتداداً لرسالة الرسول ، فلا بُدَّ أنْ تتعرَّضوا لما تعرَّض له

الرسول من استهزاء وإيذاء وإلقاء فى أمنياتكم ، فإنْ صمدتم فإن الله تعالى ينسخ ما يُلقِى الشيطان ، وينصر فى النهاية أولياءه ، وسيظل الإسلام إلى أنْ تقوم الساعة ، وسيظل هناك أناس يُعَادُون الدين ويُشكِّكون فيه ، وسيظل الملحدون الذين يُشكِّكون الناس فى وجود الله يخرجون علينا من حين إلى آخر بما يتناقض ودين الله كقولهم : إن هذا الكون خُلِق بالطبيعة ، وترى وتسمع هذا الكلام فى كتاباتهم ومقالاتهم .

ولم يَسْلَم العلم التجريبى من خرافاتهم هذه ، فإنْ رأوا الحيوان منسجماً مع بيئته قالوا : لقد أمدته الطبيعة بلون مناسب وتكوين مناسب لبيئته .

وفي النبات حينما يقفون عند آية من آياته مثلاً : ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ..(٤)﴾ [الرعد] يقولون : إن النبات يتغذى بعملية الانتخاب ، يعنى النبات هو الذى ينتخب ويختار غذاءه ، ففى التربة الواحدة وبالماء الواحد ينمو النبات الحلو والمر والحمضى والحريف ، فبدل أنْ يعترفوا لله تعالى بالفضل والقدرة يقولون : الطبيعة وعملية الانتخاب .

وقد تحدثنا مع بعض هؤلاء فى فرنسا ، وحاولنا الرد عليهم وإبطال حججهم ، وأبسطها أن عملية الانتخاب تحتاج إلى إرادة واعية تُميِّز بين الأشياء المنتخبة ، فهل عند النبات إرادة تُمكِّنه من اختيار الحلو أو الحامض ؟ وهل يُميز بين المرِّ والحريف ؟

إنهم يحاولون إقناع الناس بدور الطبيعة ليبعدوا عن الأذهان قدرة الله فيقولون : إن النبات يتغذَّى بخاصية الأنابيب الشعرية يعنى : أنابيب ضيقة جداً تشبه الشعرة فسميت بها ، ونحن نعرف أن الشعرة

عبارة عن أنبوبة مجوفة . وحين تضع هذه الأنبوبة الضيقة فى الماء ، فإن الماء يرتفع فيها إلى مستوى أعلى ؛ لأن ضغط الهواء داخل هذه الأنبوبة لضيقها أقلّ من الضغط خارجها لذا يرتفع فيها الماء ، أما إنْ كانت هذه الأنبوبة واسعة فإن الضغط بداخلها سيساوى الضغط خارجها ، ولن يرتفع فيها الماء .

فقُلْنا لهم : لو أحضرنا حوضاً به سوائل مختلفة ، مُذَاب بعضها فى بعض ، ثم وضعنا به الأنابيب الشَّعْرية ، هل سنجد فى كل أنبوبة سائلاً معيناً دون غيره من السوائل ، أم سنجد بها السائل المخلوط بكل عناصره ؟

لو قمتَ بهذه التجربة فستجد السائل يرتفع نعم فى الأنابيب بهذه الخاصية ، لكنها لا تُميِّز بين عنصر وآخر ، فالسائل واحد فى كل الأنابيب ، وما أبعد هذا عن نمو النبات وتغذيته .

وصدق الله حين قال : ﴿الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ③﴾ [الأعلى]

إذن : ما أبعدَ هذه التفسيرات عن الواقع ! وما أجهلَ القائلين بها والمروِّجين لها ! خاصة فى عصر ارتقى فيه العلم ، وتقدَّم البحث ، وتنوَّعت وسائله فى عصر استنارتْ فيه العقول ، واكتُشِفت أسرار الكون الدالة على قدرة خالقه عز وجل ، ومع ذلك لا يزال هناك مبطلون .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ..㊺﴾ [الحج]

فهم ـ إذن ـ موجودون فى أمة محمد إلى أنْ تقومَ الساعة ،

وسنُواجههم نحن كما واجههم رسول الله ، وسيظل الشيطان يُلقى فى نفـوس هؤلاء ، ويوسـوس لـهم ، ويوحى إلى أولـيائه من الإنس والجن ، ويضع العـقبات والعـراقيل ليصـدَّ الناس عن دين الله . هذا نموذج من إلقاء الشيطان فى مسألة القمة ، وهى الإيمان بالله .

كما يُلقى الشيطان فى مسألة الرسول ، فنجد منهم مَنْ يهاجم شخصية رسول الله ﷺ ، وكيف وهو الأمىّ البدوىّ يقود أمة ويتهمونه ويخوضون فى حقِّه ، وفى مسألة تعدُّد زوجاته ﷺ .. الخ ممّا يُمثِّل عقبة فى سبيل الإيمان به ﷺ .

ونعجب لهجوم هؤلاء على رسول الله طالما هم كافرون به ، إن هذا الهجوم يحمل فى طياته إيماناً بأنه رسول الله ، وإلا لَمَا استكثروا عليه ولَمَا انتقدوه ، فلو كان شخصاً عادياً ما تعرَّض لهذه الانتقادات.

لذلك لا تناقش مثل هؤلاء فى مسألة الرسول ، إنما فى مسألة القمة ، ووجود الإله ، ثم الرسول المبلِّغ عن هذا الإله ، أمّا أنْ تخوض معهم فى قضية الرسول بدايةً فلن تصلَ معهم إلى حَلٍّ ؛ لأنهم يضعون مقاييس الكمال من عندهم ، ثم يقيسون عليها سلوكيات رسول الله ، وهذا وَضْع مقلوب ، فالكمال نأخذه من الرسول ومن فعْله ، لا نضع له نحن مقاييس الكمال .

ثم يُشكِّكون بعد ذلك فى الأحكام ، فيعترضون مثلاً على الطلاق فى الإسلام ، وكيف نفرق بين زوجين ؟ وهذا أمر عجيب منهم ، فكيف نجبر زوجين كارهين على معاشرة لا يَبْغُونها ، وكأنهما مقترنان فى سلسلة من حديد ؟ كيف وأنت لا تستطيع أنْ تربط صديقاً بصديق لا يريده ، وهو لا يراه إلا مرة واحدة فى اليوم مثلاً ؟ فهل تستطيع أن تربط زوجين فى مكان واحد ، وهما مأمونان على بعض فى حال الكراهية ؟

ويُخيِّب الله سَعْيهم ، ويُظهـر بطلان هذه الأفكار ، وتُلجئهم أحداث الحياة ومشاكلها إلى تشريع الطلاق ، حيث لا بديلَ عنه لحلِّ مثل هذه المشاكل .

وقد ناقش هؤلاء كـثيراً فى قـوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة]

وفى قوله : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف] ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف]

يقولون : ومع ذلك لم يتم الدين ، ولا يزال الجمهـرة العالمية فى الدنيا غَيْر مؤمنين بالإسلام ، يريدون أنْ يُشكِّكوا فى كتاب الله . وهذا القـول منهم ناشىء عن عـدم فَـهْم للآية ، ولمـعنى ﴿لِيُظْهِرَهُ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة] فهى لا تـعنى أن ينتصـر الإسلام على كل مـا عداه انتـصاراً يمحو المخالفين له .

إنما يُظهـره يعنى : يكتب له الغلبة بصـدق حُجَجه وقـضاياه على كُرْه من الكافرين والمـشركين ، فهم - إذن - مـوجودون ، لكن يظهر عليـهم ، ويعـلو دين الإســلام ، ويضطرون هـم للأخـذ بـقـوانـينه وتشريعاته حَلاً لمشاكلهم ، وكَـوْنهم يتخذون منه حلاً لمشاكلهم وهم كـافـرون به أبلغ فـى الردِّ عليـهم لو آمنوا به ، فـلو آمنوا بالإســلام ما كان ليظهر عليهم ويعلوهم .

فما كنتم تُشكِّكون فيه وتقولون إنه ما كان يصدر من إله ولا من رسول ، فها هـى الأيام قد عضّتكم بأحداثها وتجـاربها وألجأتكم إلى هذا الحكم الذى تعارضونه ، وها أنتم تُشرِّعون بتشريع الإسلام وأنتم كافرون به ، وهذا دليل ظهوره عليكم .

ومعنى ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ۝٥٥﴾ [الحج] يعني : فجأة ، وقد تكلَّم العلماء في معنى الساعة : أهي يوم القيامة ، أم يوم يموت الإنسان ؟ الساعة تشمل المعنيين معاً ، على اعتبار أن مَنْ مات فقد قامت قيامته حيث انقطع عمله ، وموت الإنسان يأتي فجأة ، كما أن القيامة تأتي فجأة ، فهما - إذن - يستويان .

لكن ، إنْ كانت الساعة بغتة تفجؤهم بأهوالها ، فما العلامات الصُّغْرى ؟ وما العلامات الكبرى ؟ أليست مقدمات تأذن بحلول الساعة ، وحينئذ لا تُعَدُّ بغتة ؟ قالوا : علامات الشيء ليست هي إذن وجوده ، العلامة تعني : قُرْب موعده فانتبهوا واستعدُّوا ، أمَّا وقت حدوثه فلا يعلمه أحد ، ولا بُدَّ أنْ يأتي بغتة رغم هذه المقدمات .

ثم يقول تعالى : ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ [الحج] البعض[1] اعتبر : ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ [الحج] يعني القيامة ، وبالتالي فالساعة تعني الموت ، وآخرون[2] يقولون : ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ [الحج] المراد يوم بدر الذي فصل الله فيه بين الحق والباطل .

وهذا اجتهاد يُشكرون عليه ، لكن لما نتأمل الآية : ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ.. ۝٥٥﴾ [الحج] يعني : المرية مستمرة ، لكن بدراً انتهت ، المِرية ستظل إلى أن تقوم الساعة[3] .

ولا مانعَ أن تكون الساعة بمعنى القيامة ، واليوم العقيم أيضاً هو

---

(١) قاله الضحاك ، ومجاهد . قالا : يوم القيامة لا ليلة له . [نقله القرطبي في تفسيره ٤٦١٩/٦ ، والسيوطي في الدر المنثور ٧٠/٦] .

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة . [نقله القرطبي في تفسيره ٤٦١٩/٦] .

(٣) قال ابن كثير في تفسيره (٢٣١/٣) : « هذا القول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا ، لكن هذا هو المراد ، ولهذا قال : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۝٥٦﴾ [الحج] » .

يوم القيامة ، فيكون المدلول واحداً ، لأن هناك فرقاً بين زمن الحدث والحدث نفسه ، فالساعة هى زمن يوجد فيه الحدث وهو العذاب ، فالساعة أولاً ثم يأتى العذاب ، مع أن مجرد قيام الساعة فى حَدِّ ذاته عذاب .

ومعنى ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] العقيم : الذى لا يلد ، رجل كان أو امرأة ، فلا يأتى بشىء بعده ، ومنه قوله تعالى عن سارة امرأة إبراهيم عليه السلام : ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩)﴾ [الذاريات] وكذلك يوم القيامة يوم عقيم ، حيث لا يوم بعده أبداً ، فهى نهاية المطاف على حَدِّ قول أحدهم : حَبَتْهُم به الدنيا وأدركها العُقْم .

أو ﴿عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] بمعنى : أنها لا تأتى بخير ، بل بشرٍّ ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات]

ذلك لأن الريح حين تهبُّ ينتظر منها الخير ، إما بسحابة مُمطرة ، أو تحريك لقاح الذكورة بالأنوثة ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ..(٢٢)﴾ [الحجر] أما هذه فلا خَيْر فيها ، ولا طائل منها ، وليتها تقف عند عدم النفع ، ولكن تتعدَّاه إلى جَلْب الضُّر ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات] فهى تدمر كل شىء تمرُّ عليه .

وكما جاء فى قوله سبحانه : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ (٢٥)﴾ [الأحقاف]

فالمعنى ـ إذن ـ ﴿عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] لا خيرَ فيها ولا نفع ، بل فيها الشر والعذاب ، أو عقيم يعنى : لا يأتى يوم بعده ؛ لأنكم تركتم

دنيا الأغيار ، وتقلّب الأحوال حال بعد حال ، فالدنيا تتقلّب من فقر إلى غنى ، ومن صحة إلى مرض ، ومن صِغَر إلى كِبَر ، ومن أَمْن إلى خوف ، وتتحول من صيف إلى شتاء ، ومن حر إلى برد ، ومن ليل إلى نهار .. وهكذا .

أما في الآخرة فقد انتقلتم من عالم الأغيار الذي يعيش بالأسباب إلى عالم آخر يعيش مع المسبِّب سبحانه ، وإلى يوم آخر لا يومَ بعده ، كأنه عَقم أن يكون له عَقب من بعده أو مثيل له ، كما لو حضرتَ حفلاً مثلاً قد استكمل ألوان الكمال والنعم ، فتقول : هذا حدث لا يتكرر يعني : عقيم لا يأتي بعده مثله .

وإذا كنتَ في الدنيا تعيش بالأسباب التي خلقها الله لك ، فأنت في الآخرة ستجلس مستريحاً تتمتع بالمسبِّب عَزَّ وجَلَّ ، ويكفي أن يخطر الشيء ببالك ، فتراه بين يديك ؛ ولأن القيامة لا أغيارَ فيها ولا تقلّب ، فسيظل الجميع كلٌّ على حاله في سِنٍّ واحدة ، لا يشيب ولا يهرم ، ولا يمرض ولا يموت .

ألاَ ترى إلى قوله تعالى في نساء الجنة : ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا[1] أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨)﴾ [الواقعة]

والكاره لزوجته في الدنيا لأنها كانت تتعبه نقول له : لا تقسْ زوجة الدنيا بزوجة الآخرة ؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ (٥٧)﴾ [النساء]

أي : مطهرة من كل ما كنتَ تكرهه فيها في الدنيا شكلاً وطَبْعاً وخُلقاً ، فأنت الآن في الآخرة التي لا يعكر نعيمها كَدَر .

---

(١) العُرُب : جمع عَرُوب ، وهي المرأة المتحببة إلى زوجها . والاتراب : جمع تِرْب ، وهو المساوي في السن . [القاموس القويم ١/٩٩] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) ﴾

ولقائل أنْ يقول : أليس الملْك لله يومئذ ، وفى كل يوم ؟ نعم ، الملْك لله فى الدنيا وفى الآخرة ، لكن فى الدنيا خلق الله خَلْقاً وملّكهم ، وجعلهم ملوكاً من باطن مُلْكه تعالى ، لكنه مُلْك لا يدوم ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران]

إذن : ففى الدنيا ملوك ملّكهم الله أمراً من الأمور ، ففيها ملك للغير ، أمّا فى الآخرة فالملْك لله تعالى وحده : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

وفى القيامة ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ..(٥٦) ﴾ [الحج] فقد ردَّ الملْك كله إلى صاحبه ، ورُدَّت الأسباب إلى مُسبِّبها .

ومعنى ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ..(٥٦) ﴾ [الحج] أن هناك خصومةً بين طرفين ، أحدهما على حق ، والآخر على باطل ، والفَصْل فى خصومات الدنيا تحتاج إلى شهود ، وإلى بينة ، وإلى يمين فيقولون فى المحاكم : البينة على المدَّعِى واليمين على مَنْ أنكر ، هذا فى خصومات الدنيا ، أما خصومات الآخرة فقاضيها الحق - سبحانه وتعالى - الذى يعلم السرَّ وأخفى ، فلا يحتاج إلى بينة ولا شهود ولا سلطة تُنفِّذ ما حكم به .

محكمة الآخرة لا تحتاج فيها إلى مُحامٍ ، ولا تستطيع فيها أنْ تُدلِّس على القاضي ، أو تُؤجِّر شاهد زور ، لا تستطيع في محكمة الآخرة أن تستخدم سلطتك الزمنية فتنقض الحكم ، أو تُسقطه ؛ لأن المُلْك يومئذ لله وحده ، والحكم يومئذ لله وحده ، هو سبحانه القاضي والشاهد والمنفِّذ ، الذي لا يستدرك على حكمه أحد .

وما دام هناك حكومة ، فلا بُدَّ أنْ تسفر عن محكوم له ومحكوم عليه ، ويُوضِّحهما قوله تعالى : ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** (٥٦) ﴾ [الحج]

وهؤلاء هم الفائزون الذين جاء الحكم في صالحهم .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧) ﴾

وهؤلاء هم الجبابرة وأصحاب السيادة في دنيا الكفر والعناد ، والذين حكم الله عليهم بالعذاب الذي يُهينهم بعد عِزَّتهم وسلطانهم في الدنيا ، وتلحظ أن العذاب يُوصَف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه عظيم ، ومرة بأنه مُهين .

فالعذاب الأليم الذي يُؤلم صاحبه ، لكنه قد يكون لفترة ثم ينتهي ، أما العذاب العظيم فهو الدائم ، والمهين هو الذي يُذله ويدوس كرامته التي طالما اعتز بها . وأنت تجد الناس يختلفون في تقبُّل ألوان العذاب : فمنهم مَنْ لا يؤثر فيه الضرب الموجع ولا يحركه ، لكن

تؤلمه كلمة تجرح عزَّته وكرامته . لذلك جاء العذاب هكذا ألواناً ؛ ليستوعب كل صنوف الملكات النفسية ، ويواجه كُلَّ نفس بما يؤلمها .

• • •

ثم تكلم الحق سبحانه عن أمر كان لا بُدَّ أن نعرفه ، فالمسلمون الأوائل فى مكة أُخرِجوا من ديارهم وأبنائهم وأموالهم لأنهم قالوا : ربنا الله ، ولا شكَّ أن للوطن وللأهل والبيئة التى نشأ فيها المرء أثراً فى ملكات نفسه ، لا يمكن أنْ يُمحَى بحال ، فإنْ غاب عنه اشتاق إليه وتمنَّى العودة ، وكما يقول الشاعر :

بَلَدِى وَإنْ جَارَتْ علىَّ عَزِيزَةٌ ... أهْلِى وإنْ ضَنُّوا علىَّ كِرَامُ

لذلك ، فطالب العالم عندما يترك بلده إلى القاهرة يقولون : لا بُدَّ له أن يرجع ، ولو أن تعضُّه الأحداث والشدائد ، فيعود ليطلب من أهله العون والمساعدة ، أو حتى يعود إليها فى نهاية المطاف ليدفنوه فى تراب بلده .

وقالوا : إن سيدنا سليمان - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لما تفقَّد الطير ﴿فَقَالَ مَا لِىَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ[1] عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١)﴾ [النمل] ذلك لأنه نبى ، فالمسألة ليستْ جبروتاً وتعذيباً ، دون أن يسمع منه . وقالوا : إن الطير سأل سليمان : كيف يعذب الهدهد ؟ قال : أضعه

(١) قال ابن عباس : يعنى نتف ريشه . وقال عبد الله بن شداد : نتف ريشه وتشميسه . وكذا قال غير واحد من السلف : إنه نتف ريشه وتركه مُلْقًى يأكله الذر والنمل . [تفسير ابن كثير ٣/٣٦٠]

في غير بني جنسه ، وفي غير المكان الذي يألفه ، يعني : في غير موطنه .

يقول تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) ﴾

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ (٤٠) ﴾ [الحج] هؤلاء تحملوا الكثير ، وتعبوا في سبيل عقيدتهم ، فلا بُدَّ أنْ يُعوِّضهم الله عن هذه التضحيات ، لذلك يقول هنا : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا (٥٨) ﴾ [الحج] وأوضحنا أن الموت غير القتل : الموت أن تخرج الروح دون نَقْضٍ للبنية ، أما القتل فهو نَقْض للبِنْية يترتب عليه خروج الروح .

﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا .. (٥٨) ﴾ [الحج] تعويضاً لهم عَمَّا فاتوه في بلدهم من أهل ومال ، كما يُعوِّض الحاكم العادل المظلوم فيعطيه أكثر ممَّا أُخذ منه ؛ لذلك يقول سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

لأن مَنْ قُتل فقد فاز بالشهادة ونال إحدى الحُسْنيين ، أما مَنْ مات فقد حُرِم هذا الشرف ؛ لذلك فقد وقع أجره على الله ، وما بالك بأجر مُؤدِّيه ربك عز وجل ؟ وكما لو أن رجلاً مُتْعباً يسير ليس معه شيء ولا يجد حتى مَنْ يقرضه ، وفجأة سقطت رجْله فى حفرة فتكدَّر وقال : حتى هذه ؟! لكن سرعان ما وجد قدمه قد أثارتْ شيئاً فى التراب له بريق ، فإذا هو ذهب كثير وقع عليه بنفسه .

ويُرْوى أن فضالة[1] حضرهم وهم يدفنون شهيداً ، وآخر مات غير شهيد ، فرأوْه ترك قبر الشهيد وذهب إلى قبر غير الشهيد ، فلما سألوه : كيف يترك قبر الشهيد إلى غير الشهيد ؟ قال : والله ما أبالى فى أيِّ حفرة منهما بُعثْت[2] ما دام قد وقع أجرى على الله ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) ﴾ [الحج] حين يصف الحق سبحانه ذاته بصفة ، ثم تأتى بصيغة الجمع ، فهذا يعنى أن الله تعالى أدخل معه الخَلْق فى هذه الصفة ، كما سبق أنْ تكلمنا فى قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

فقد أثبت للخَلْق صفة الخَلْق ، وأشركهم معه سبحانه فى هذه الصفة ؛ لأنه سبحانه لا يبخس عباده شيئاً ، ولا يحرمهم ثمرة مجهودهم ، فكل مَنْ أوجد شيئاً فقد خلقه ، حتى فى الكذب قال ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا .. (١٧) ﴾ [العنكبوت]

---

(١) هو : فضالة بن عبيد الأنصارى الأوسى ، أبو محمد ، صحابى ممن بايع تحت الشجرة شهد أحداً وما بعدها ، وشهد فتح الشام ومصر ، وسكن الشام ، ولى الغزو والبحر بمصر ، ثم ولاه معاوية قضاء دمشق وتوفى فيها عام (٥٣هـ) [الأعلام للزركلى ٥/١٤٦].

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٢٠) وعزاه لابن المبارك أنه ذكر عن فضالة بن عبيد .

لأن الخَلْق إيجاد من عدم ، فأنت حين تصنع مثلاً كوب الماء من الزجاج أوجدتَ ما لم يكن موجوداً ، وإنْ كنت قد استخدمت المواد المخلوقة لله تعالى ، وأعملتَ فيها عقلك حتى توصلْتَ إلى إنشاء شيء جديد لم يكُنْ موجوداً ، فأنت بهذا المعنى خالق حسن ، لكن خلق ربك أحسن ، فأنت تخلق من موجود ، وربك يخلق من عدم ، وما أوجدتَه أنت يظل على حالته ويجمد على خلْقتك له ، ولا يتكرر بالتناسل ، ولا ينمو ، وليست فيه حياة ، أما خَلْق ربك سبحانه فكما تعلم .

كذلك يقول سبحانه هنا : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الحج] فاثبت لخَلْقه أيضاً صفة الرزق ، من حيث هم سَبَب فيه ؛ لأن الرزق: هو كل ما ينتفع به حتى الحرام يُعَدُّ رزقاً ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة]

نقول : فالعبد سبب في الرزق ؛ لأن الله تعالى هو خالق الرزق أولاً ، ثم أعطاك إياه تنتفع به وتعمل فيه ، وتعطى منه للغير ، فالرزق منك مناولة عن الرازق الأول سبحانه ، فأنت بهذا المعنى رازق وإنْ كرهوا أنْ يُسمَّى الإنسان رازقاً ، رغم قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الحج] لماذا ؟ قالوا : حتى لا يفهم أن الرزق من الناس .

لذلك نسمع كثيراً من العمال البسطاء ، أو موظفاً صغيراً ، أو بواب عمارة مثلاً حين يفصله صاحب العمل ، يقول له : يا سيدى الأرزاق بيد الله . كيف وقد كنت تأخذ راتبك من يده ومن ماله ؟ قالوا : لأنه نظر إلى المناوِل الأول للرزق ، ولم ينظر إلى المناوِل الثاني .

أمـا الرزق الحـسن الذى أعـدَّه الله للـذين هاجـروا فى سـبـيله ، فيوضحه سبحانه فى قوله :

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

لأن الرزق قد يكون حسناً لكنه لا يُرضِى صـاحبه ، أما رزق الله لهؤلاء فقد بلغ رضاهم ، والرضـا : هو اقتناع النفس بشىء تجد فيه متعة ، بحيث لا تستشرف إلى أعلى منه ، ولا تبغى أكثر من ذلك .

لذلك بعد أنْ ينعَم أهل الجنة بنعيمها ، ممَّا لا عَيْنٌ رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر علـى قلب بشر ، بعدها يتجلَّى الحق - سـبحانه - عليهم فيقول لعباده المؤمنين : يا عـبادى أرضيتم ؟ فيقولون : وكيف لا نرضى وقـد أعطيْـتنا مـا لم تُعْطِ أحـداً من العـالمـين ؟ قـال : ألا أعطيكم أفـضل من هذا ؟ قالوا : وهَل شىء أفـضل ممـا نحن فـيه ؟ قال : نعم ، أُحِلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً[1] .

ومن ذلك قولـه تعالى لنبيـه محـمد ﷺ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى]

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفجر]

يبـالغ فى الرضا ، حـيث يتـعداك الرضـا إلى أن تكون عـيشـتك نفسـها راضية ، وكأنها تعشقك هى ، وترضى بك .

---

(١) متفق عليـه . أخرجه البخـارى فى صحيحـه (٧٥١٨) ، وكذا مسلم فى صحـيحه (٢٨٢٩) كتاب الجنة وصفة نعيمها . من حديث أبى سعيد الخدرى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩ ﴾ [الحج]

عليم : بما يستحقه كل إنسان عند الحساب من النعيم ، ثم يزيد مَنْ يشاء من فضله ، فليس حساب ربك فى الآخرة كحسابكم فى الدنيا ، إنما حسابُه تعالى بالفضل لا بالعدل .

وحليم : يحلم على العبد إنْ أساء ، ويتجاوز للصالحين عن الهَفَوات ، فإنْ خالط عملك الصالح سوء ، وإنْ خالفت منهج الله فى غفلة أو هفوة ، فلا تجعل هذا يعكر صفو علاقتك بربك أو يُنغِّص عليك طمأنينة حياتك ؛ لأن ربك حليم سيتجاوز عن مثل هذا على حَدِّ قولهم (حبيبك يبلع لك الزلط)

لذلك لما وَشَى أحد المؤمنين(١) للكفار فى فتح مكة ، وهَمَّ عمر أن يقتله فنهاه رسول الله ﷺ وقال : « لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم »(٢)

ويكفى أنهم خرجوا بأنفسهم واقتحموا معركة غير متكافئة فى العدد والعُدَّة ، ألا نذكر لهم هذا الموقف ؟ ألم يقل الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. ۝١١٤ ﴾ [هود] ومَنِ ابتُلى بشىء يضعف أمامه ، فليكن قوياً فيما يقدر عليه ، وإنْ غلبك الشيطان فى باب من أبواب الشر فشمِّر له أنت فى أبواب الخير ، فإن هذا يُعوِّض ذاك .

---

(١) هو حاطب بن أبى بلتعة . وقصته أنه كاتب أهل مكة بتجهيز رسول الله ﷺ لفتح مكة ، فقال عمر : دعنى أضرب عنقه فقال إنه شهد بدراً واعتذر حاطب بأنه لم يكن له فى مكة عشيرة تدفع عن أهله فقبل عذره . قال المرزبانى فى « معجم الشعراء » : كان أحد فرسان قريش فى الجاهلية وشعرائها . قال المدايني : مات حاطب فى سنة ثلاثين فى خلافة عثمان وله ٦٥ سنة . [الإصابة لابن حجر ١/٣١٤] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٩٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٤٩٤) من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يعنى هذا الأمر الذى تحدثنا فيه قد استقر ، وإليك هذا الكلام الجديد ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحج]

الحق - سبحانه وتعالى - خلق الإنسان وجعل فيه ملكات مختلفة ليؤدى خلافته فى الأرض بحركات متوازنة ، فخلق لنا عواطف وجعل لها مهمة ، هذه العواطف لا يحكمها قانون . وخلق لنا أيضاً غرائز ولها مهمة ، لكن محكومة بقانون تعلية الغرائز عند الخلق ، فإياك أنْ تتعدى بغريزتك إلى غير المهمة التى خلقها الله لها .

فمثلاً ، غريزة حب الطعام جعلها الله فيك لاستبقاء الحياة ، فلا تجعلها غرضاً أصيلاً لذاتها ، فتأكل لمجرد أنْ تلتذَّ بالأكل ؛ لأنها لذة وقتية تعقبها آلام ومتاعب طويلة . وهذه الغريزة جعلها الله فى النفس البشرية منضبطة تماماً كما تضبط المنبِّه مثلاً ، فحين تجوع تجد نفسك تاقتْ للطعام وطلبته ، وإنْ عطشتْ مالتْ نفسك نحو الماء ، وكأن بداخلك جرساً يُنبِّهك إلى ما تحتاجه بنيتك من مُقوِّمات استبقائها .

حب الاستطلاع غريزة جعلها الله فيك لتنظر بها وتستطلع ما فى الكون من أسرار دالة على قدرة الله وعظمته ، فلا تتعدى هذا الغرض ، ولا تحرِّك هذه الغريزة إلى التجسُّس على الخَلْق والوقوف على أسرارهم .

التناسل غريزة جعلها الله لحفْظ النوع ، فلا ينبغى أنْ تتعدى ماجعلت له إلى ما حرَّم الله .

الغضب غريزة وانفعال قَسْرى لا تختاره بعقلك تغضب أو لا تغضب ، إنما إنْ تعرضتَ لأسبابه فلا تملك إلا أنْ تغضب ، ومع ذلك جعل له حدوداً وقنَّن له وأمر فيه بضبط النفس وعدم النزوع .

الحب والكُرْه غريزة وعاطفة لا تخضع لقانون ، ولا يحكمها العقل ، فلك أن تحب وأن تكره ، لكن إياك أنْ تتعدَّى هذه العاطفة إلى عمل عقليٍّ ونزوع تعتدى به أو تظلم .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ[1] قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا.. ⑧﴾ [المائدة]

لأن هذه المسألة لا يحكمها قانون ، وليس بيدك الحب أو الكره ؛ لذلك لما قابل سيدنا عمر قاتل أخيه قال له عمر : أدِرْ وجهك عنى فإنِّى لا أحبك . وكان الرجل عاقلاً فقال لسيدنا عمر : أوَ عَدَمُ حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ قال عمر : لا ، فقال الرجل : إنما يبكى على الحب النساء . يعنى أحِبَّ أو اكره كما شئتَ ، لكن لا تتعدَّ ولا تحرمنى حقاً من حقوقى .

فهل وقفنا بالغرائز عند حدودها وأهدافها ؟ لو تأملتَ مثلاً الغريزة الجنسية التى يصفُها البعض بملْء فيه يقول : غريزة بهيمية .. سبحان الله ألاَ تستحى أنْ تظلم البهائم لمجرد أنها لا تتكلّم ، وهى أفهم لهذه الغريزة منك ، ألاَ تراها بمجرد أن يُخصِّب الذكَر أنثاه

---

(١) شناه وشَنئه شنآناً : أبغضه وكرهه . والشانىء : المبغض . [القاموس القويم ١/٣٥٧] وجرمه : حمله على فعل شر أو ذنب أو جُرْم . أى : لا يحملنكم بُغْض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . [القاموس القويم ١/١٢١] .

لا يقربها أبداً ، وهى لا تمكّنه من نفسها إذا ما حملَتْ ، فى حين أنك تبالغ فى هذه الغريزة ، وتنطلق فيها انطلاقاً يُخرجها عن هدفها والحكمة منها ؟ على مثل هذا أن يخزى أن يقول مثل هذه المقولة ، وألاّ يظلم البهائم ، فمن الناس مَنْ هم أدْنى من البهائم بكثير .

وما يقال عن غريزة الجنس فى الحيوان يقال كذلك فى الطعام والشراب .

إذن : الخالق سبحانه خلق الغرائز فيك ، ولم يكبتها ، وجعل لها منافذ شرعية لتؤدى مهمتها فى حياتك ؛ لذلك أحاطها بسياج من التكليف يُنظّمها ويحكمها حتى لا تشرد بك ، فقال مثلاً فى غريزة الطعام والشراب : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا .. (٣١) ﴾ [الأعراف]

وقال فى غريزة حب الاستطلاع : ﴿ وَلا تَجَسَّسُوا .. (١٢) ﴾ [الحجرات] وهكذا فى كل غرائزك تجد لها حدوداً يجب عليك ألاّ تتعداها .

لذلك قلنا فى صفات الإيمان وفى صفات الكفر أن الله تعالى يصف المؤمنين بأنه ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] لأنهم يضعون كل غريزة فى موضعها فالشدة مع الأعداء ، والرحمة مع إخوانهم المؤمنين ، ويقف عند هذه الحدود لا يقلب مقاييسها ، ويلتزم بقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤) ﴾ [المائدة]

وكأن الخالق عز وجل يُسوِّينا تسوية إيمانية ، فالمؤمن لم يُخلَق عزيزاً ولا ذليلاً ، إنما الموقف هو الذى يضعه فى مكانه المناسب ، فهو عزيز شامخ مع الكفار ، وذليل مُنكسر متواضع مع المؤمنين .

ويتفرع عن هذه المسألة مسألة ردِّ العقوبة إذا اعتُدى عليك : ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ .. ⟨٦٠⟩ ﴾ [الحج]

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هو خالق النفس البشرية ، وهو أعلم بنوازعها وخلَجاتها ؛ لذلك أباح لك إن اعتدى عليك أنْ تردَّ الاعتداء بمثله ، حتى لا يختمر الغضب فى نفسك ، وقد ينتج عنه ما هو أشد وأبلغ فى ردِّ العقوبة ، يبيح لك الرد بالمثل لتنتهى المسألة عند هذا الحد ولا تتفاقم ، فمَنْ ضربك ضربة فلك أنْ تُنفِّس عن نفسك وتضربه مثلها ، لك ذلك ، لكن تذكَّر المثلية هنا ، لا بد أن تكون تامة ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. ⟨١٢٦⟩ ﴾ [النحل]

وهل تستطيع أن تضبط هذه المثلية فتردّ الضربة بمثلها ؟ وهل قوتك كقوته ، وحدَّة انفعالك في الرد كحدَّة انفعاله ؟ ولو حدث وزدْتَ فى ردِّك نتيجةَ غضب ، ماذا تفعل ؟ أتسمح له أنْ يردَّ عليك هذه الزيادة ؟ أم تكون أنت ظالماً معتدياً ؟

إذن : ماذا يُلجئك لمثل هذه المتاهة ، ولك فى التسامح سعَة ، وفى قول الله بعدها : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ⟨١٢٦⟩ ﴾ [النحل] مَخْرج من هذا الضيق ؟

وسبق أنْ حكينا قصة المرابى اليهودى الذى قال لطالب الدَّيْن : إن تأخرت فى السداد أشترط عليك أنْ آخذ رطلاً من لحمك . وجاء وقت السداد ولم يُوف المدين ، فرفعه الدائن إلى القاضى وأخبره بما اشترطه عليه ، فقال القاضى : نعم من حقك أن تأخذ رطلاً من لحمه لكن بضربة واحدة بالسكين تأخذ رطلاً ، إنْ زاد أو نقص أخذناه منك .

إذن : مسألة المثلية هنا عقبةٌ تحدُّ من ثورة الغضب ، وتفتح باباً للارتقاءات الإيمانية ، فإنْ كان الحق سبحانه سمح لك أن تُنفِّس عن نفسك فقال : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] فإنه يقول لك : لا تنسَ العفو والتسامح ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران]

لذلك ، فالآية التى معنا تلفتنا لَفْتةً إيمانية : ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ .. (٦٠)﴾ [الحج] واحدة بواحدة ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ .. (٦٠)﴾ [الحج] يعنى : زاده بعد أنْ ردَّ العدوان بمثله وظلمه واعتدى عليه ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ .. (٦٠)﴾ [الحج] ينصره على المعتدى الذى لم يرتَضِ حكم الله فى رَدِّ العقوبة بمثلها .

وتلحظ فى قوله تعالى مخايل النصر بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠)﴾ [الحج] مع أن الصفة التى تناسب النُّصْرة أن يقول قوى عزيز ؛ لأن النُّصْرة تحتاج قوة وتحتاج عزة ، لكنه سبحانه اختار صفة العفو والمغفرة ليلفت نظر مَنْ أراد أنْ يعاقب إلى هذه الارتقاءات الإيمانية : اغفر وارحم واعْفُ ؛ لأن ربك عفو غفور ، فاختار الصفة التى تُحنِّن قلب المؤمن على أخيه المؤمن .

ثم أليس لك ذنب مع الله ؟ ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢)﴾ [النور] فما دُمْت تحب أن يغفر الله لك فاغفر لعباده ، وحين تغفر لمَنْ يستحق العقوبة تأتى النتيجة كما قال ربك عز وجل : ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت]

فالحق سبحانه يريد أن يشيع بيننا الصفاء النفسى والتلاحم الإيمانى ، فأعطاك حقَّ رَدِّ العقوبة بمثلها لتنفِّس عن نفسك الغيظ ، ثم دعاك إلى العفو والمغفرة .